المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثامن والثلاثين

١ مارس (آذار) سنة ١٩١١ — الموافق ٣٠ صفر سنة ١٣٢٩

السر فرنسيس غلتن

لما رأينا السر فرنسيس غلتن آخر مرة في هذا القطر منذ بضع سنوات كان قد ناهز الثمانين لكنهُ كان لا يزال كهلاً في بشاشة وجهه وطلاقة لسانه واستطاعته على تحمُّل مشاق الاسفار واكبّا الجمال في البراري والقفار . لكن العمر محدود والاجسام لا بدَّ من ان يسري اليها الفساد

كل ابن انثى وان طالت سلامتهُ يومًا على آلة حدباء محمولُ

فجاءهُ القدر المحتوم لسبع عشرة خلون من يناير وهو في الثامنة والثمانين من عمره . اعتراهُ شيء من الضعف في شهر اغسطس الماضي لكن بقي ما فتئ عقلهُ ونشاطهُ وظلَّ يكاتب اصدقاءهُ الى قبل وفاتهِ بعشرة ايام وكان يحب الاقامة في العراء فاصابهُ زكام ثم التهاب في الشعب قضى عليهِ

كانت ولادتهُ في ١٦ فبراير سنة ١٨٢٢ وابوهُ صرَّاف كبير وامهُ ابنة اراسموس دارون جدتشارلس دارون الطبيعي المشهور . درس الطب جريًا على رغبة والديهِ وساح في الشرق وعمرهُ ١٨ سنة فزار الاستانة وايينا ثم عاد الى المدرسة ونال الدبلوما سنة ١٨٤٣ ولكنهُ لم يُمنَ بممارسة الطب بل كان ميَّالاً الى السياحة والضرب في الآفاق فجاب فيافي السودان سنة ١٨٤٥ و ١٨٤٦ . وعاد الى الاسفار سنة ١٨٥٠ فساح في دارفور وما اليها من جنوب افريقية والَّف في ذلك كتابًا وصف فيهِ اسفارهُ وطبعهُ سنة ١٨٥٣ فكان لهُ وقع عظيم فقلدتهُ الجمعيَّة الجغرافية لندن . وسمَّاها الذهبي وانتخبتهُ عضواً في مجلس ادارتها ولم يكتفِ بذلك بل نشر كتابًا آخر سنة ١٨٥٥ بانيًا اياهُ على هذه الرحلة سماهُ علم السياحة او الوسائل

التي يحتاج اليها السائح في البلاد القاحلة فراج كثيراً وتكرَّر طبعهُ مراراً. ورافق السر جورج اري الفلكي الى اسبانيا سنة ١٨٦٠ لرصد كسوف الشمس وألَّف في ذلك كتاباً سماهُ الرحلات وقت الفُرَص. وشرع حينئذٍ يهتم برصد الاحداث الجوية واشار بعمل خرائط ترسم فيها احوال الجو وحركات الرياح في بلاد واسعة فيُرَى فيها سير الانواء بنظرة واحدة بدلاً من الجداول. وهي الخرائط الجوية التي ترى الآن في كثير من الجرائد الاوربية والتي تنشر منها مصلحة المساحة المصرية نشرات اسبوعية. فكان لاشارته وقع حسن عند المشتغلين بعلم الارصاد الجوية فجروا عليها. وتوسع في هذا الموضوع حتى صار علم الارصاد الجوية من انفع العلوم للملاحة اي سلك الابحر وجُعل رئيساً للمجلس الذي يدير الارصاد الجوية ببلاد الانكليز فوسَّع نطاق عملهِ جدًّا وجعلهُ المرجع الاول الذي يُرجع اليهِ في ارصاد الجو

لكن اذا ذكر اسم غلتن لم يسبق السامع بابحاثهِ الميتيورولوجية على عظم فائدتها بل بابحاثهِ في الوراثة واصلاح النسل ففي سنة ١٨٦٩ نشر كتابهُ في وراثة القوى العقلية الفائقة واقام الادلَّة فيهِ على كون النبوغ وراثيًّا. ثم نشر كتاباً سنة ١٨٧٤ موضوعهُ رجال العلم من الانكليز وجعلهُ تاريخاً طبيعيًّا لمئة وثمانين رجلاً من الرجال الذين اشتهروا بالعلم لانهُ استقصى فيهِ تاريخ اسلافهم وذكر كل ما يتعلَّق بصحتهم وقامتهم وذاكرتهم وحجم رؤوسهم وما اشبه فانتبت ما ذهب اليهِ من حيث الوراثة. ثم نشر كتاباً ثالثاً في هذا الموضوع سنة ١٨٨٣ بحث فيهِ عن قوى العلماء العقلية وما اثَّرتهُ الوراثة فيها وما يجب عملهُ لتقوية العقول ومنع ما يضعفها لكي تساعد الطبيعة على بقاء الاصلح من نوع الانسان ولا تترك الامر للصدف

والظاهر ان ما امتاز بهِ من القوى العقلية والجسدية الفائقة دعاهُ الى البحث في هذا الموضوع لاسيما وفي عروقهِ من دم آل غلتن وآل دارون وآل باركلي وهم مشهورون بقواهم الجسدية والعقلية

وطُلب منهُ سنة ١٩٠١ ان يخطب الخطبة التي تخطب تذكاراً لمكسلي فجعل موضوعها اصلاح نسل الانسان وقد نشرنا خلاصتها حينئذٍ في جزء دسمبر سنة ١٩٠١ بعد ان قدمنا لها مقدمة وجيزة فاعدنا نشرها الآن مع مقدمتها لكي يطلع عليها من لم يطلع عليها قبلاً فنقول

لو كان موضوع هذه المقالة اصلاح نسل الحيوان كالخيل والغنم والبقر لاهتمَّ اهل الزراعة بها وقرأوها بالامعان الذي تستحقهُ. ولكن اصلاح نسل الانسان وعليهِ يتوقف ارتقاء الامم وتفوُّقها على غيرها يراهُ جمهور كبير من القراء امرًا ادقًّا لا يجوز البحث فيهِ ولا تحلُّ الكتابة عنهُ. ولو زار الارض احد سكان الكواكب واخبرهُ ان علماء الارض يهتمون باصلاح نسل

الغنم والبقر ولا يهتمون باصلاح نسل البشر لظنك تمزح او تهذي ولكن هذا هو الواقع ولولا الميل الفطري الى الارتقاء والحث الديني على العفة لكان نوع الانسان احط من انواع كثيرة من الحيوان

وللاوربيين ولاسيما الانكليز منهم اسلوب حسن جداً لتخليد ذكر العلماء ونشر الحقائق العلمية بين العامة منهم وهو جمع مال يعطى ريعه لمن يُنتدب لخطبة علمية يتلوها تذكاراً للعالم الذي يراد تخليد ذكره . ومن هذه الخطب الخطبة التي نتلى على ذكر الاستاذ هكسلي وقد دُعي للاولى منها الاستاذ لركو الالماني ونشرناها في حينها ودعي للثانية الدكتور فرنسيس غلتن العالم الانكليزي صاحب المباحث المستفيضة في الوراثة وآثارها الافاضل فخطب في التاسع والعشرين من الشهر الماضي (اكتوبر) خطبة موضوعها امكان اصلاح نسل الانسان في الاحوال الحاضرة . ويستفاد مما قاله في هذا الصدد ان اخلاق الناس تختلف كثيراً ولكنها تجري في قوتها وضعفها وشيوعها وانحصارها على قانون حسابي يسمّى قانون التغلّب ومفاد هذا القانون انهُ اذا اتصف مئة نفس بخلق من الاخلاق فيكون هذا الخلق على متوسطهم في خمسين منهم والخمسون الباقون نصفهم فوق هذا المتوسط ونصفهم تحتهُ واذا قسم الخمسة والعشرون الذين فوق المتوسط الى ثلاث طبقات كان ١٦ منهم في الطبقة التي تلي الوسط و٧ في الطبقة التي فوقها و ٢ في الطبقة العليا وكذا الخمسة والعشرون الذين تحت الوسط يكون ١٦ منهم في الطبقة التي تليهِ و ٧ في الطبقة التي تحتها و ٢ في الطبقة السفلى . فالنوابغ في كل خلق من الاخلاق لا يزيدون على اثنين في المئة والمنحطون الى الدرك الاسفل فيهِ لا يزيدون على اثنين في المئة ايضاً واكثر الناس من المتوسطين في ذلك الخلق

واذا توسعنا في الاحصاء ونظرنا في عشرة آلاف نفس لا في مئة فقط رأينا خمسة آلاف منهم في الطبقة الوسطى و ٢٥٠٠ في الطبقات التي فوقها و ٢٥٠٠ في الطبقات التي تحتها . ومن اهل الطبقات التي فوق الوسط ١٦١٣ في الطبقة التي تلي الوسط و٦٧٢ في الطبقة التي فوقها و ١٨ في التي فوق هذه و ٣٥ في الطبقة العليا . وكذلك يكون الامر في الطبقات السفلى اي يكون ١٦١٣ في الطبقة التي تلي الوسط و٦٧٢ في التي تحتها و ١٨ في التي تحت هذه و ٣٥ في الطبقة السفلى . فالنوابغ في كل امر من الامور يبلغون نحو ٣ في الالف والمنحطون فيهِ انحطاطاً تاماً يبلغون ايضاً نحو ثلاثة في الالف وبقية الناس بين بين واكثرهم في الطبقة الوسطى

هذا يكون حال الناس اذا تُركوا يتوالدون من غير اعتناء خاص باصلاح نسلهم اي من

غير ان يُغرى المرتقون منهم بالزواج وإخلاف النسل ويُعتنى باولادهم اعتناء خاصاً لحفظ صحتهم وتثقيف عقولهم وتهذيب اخلاقهم ومن غير ان يمنع المنحطون عن الزواج لكي يقل عددهم ويتقرض نسلهم رويداً رويداً. واما اذا بُذلت العناية في ما تقدم من اغراء المرتقين بالزواج ومنع المنحطين عنهُ فلا بد من ان تتغير النسبة المذكورة آنفاً ويكثر عدد اهل المناقب ويقل عدد اهل المعايب

واذا قدّر ثمن الاولاد بما تستفيدهُ منهم بلادهم وامتهم كما يقدَّر ثمن نتاج الخيل بما يستفيدهُ منها اصحابها وساوى طفل الابوين اللذين من الطبقة الدنيا عشرة دنانير فطفل الابوين اللذين من الطبقة العليا يساوي الف دينار او عشرة آلاف دينار كما يباع مهر المجين بخمسة دنانير ومهر الاصيل بخمسة آلاف

وهذا الحكم لا يقتصر على الرجال بل يتناول النساء ايضاً. فاذا قُصر الانتقاء على الرجال وعلى الطبقة العليا منهم واليسع لهم التزوج بمن يشاؤون من بنات الطبقة العليا وغيرها من الطبقات التي تحتها من غير انتقاء وقسمنا مئة من نسلهم الى ثماني طبقات وجدنا في الطبقة العليا منها نحو ٤ انفس وفي الطبقة الثانية التي تحتها نحو ١٠ وفي الثالثة نحو ٢١ وفي الرابعة نحو ٢٧ وفي الخامسة نحو ٢٣ وفي السادسة نحو ١٠ وفي السابعة نحو ٣ وفي الثامنة نحو ١. واما اذا تناول الانتقاء الرجال والنساء ايضاً فتزوج رجال الطبقة العليا بنساء الطبقة العليا فقط جاء اولادهم من الطبقات الخمس الاولى فقط لا من التي دونها اي ان الاخلاق الموروثة في الوالدين تفعل بالنسل ولكنها لا تعيدهُ الى الطبقات الدنيا فيكون في الطبقة العليا نحو ١٨ نفساً وفي الثانية ٢٩ وفي الثالثة ٢٩ ايضاً وفي الرابعة ١٥ وفي الخامسة ٩ انفس ولا يكون احد من اولادهم في الطبقة السادسة والسابعة والثامنة

فاذا ثبت ذلك وامتنع الذين من الطبقات الدنيا عن التزوج وإخلاف النسل زاد عدد الذين من الطبقات العليا رويداً رويداً وارتفت بهم الامم ونجت من متاعب كثيرة اذ يقلُّ فيها الاشرار والبهّال ويكثر الفضلاء والمجتهدون

الا ان المنع ليس مما يسهل امرهُ فلم يشر به الخطيب بل اشار بترغيب الفضلاء والفاضلات في الزواج واخلاف النسل وذلك بان ينتبه رؤساء المدارس للنابغين من طلبة العلم وطالباته الذين يمتازون على غيرهم بالقوى العقلية والادبية والهمّة والنشاط ويبحثوا عن اصلهم وفصلهم وما في اسلافهم من الادواء والامراض وكثرة الولد او قلته حتى اذا رأوهم من اصح الناس بنية واجودهم صحّة واذكاهم عقلاً واكرمهم اخلاقاً اعطوهم شهادات قاطعة بذلك

فيكون لهم الامتياز على غيرهم في الزواج

وما يرى في الاحداث من الاخلاق قد لا يرى فيهم بتقدمهم في السن وقد تظهر فيهم اخلاق فاضلة متى اكتملوا لا تكون فيهم في حداثتهم . ولم يبحث احدٌ حتى الآن عن نسبة الاحداث الى الكهول من حيث نمو الاخلاق ليعلم كم عدد الذين تستمرُّ اخلاقهم الفاضلة على النمو وكم عدد الذين تزيد فيهم هذه الاخلاق او تنقص ولكن مهما يكن من ذلك فلا شبهة في ان ترغيب كثيرة الناس في الزواج واخلاف النسل يفضي الى اصلاح الامة بتكثير الاخيار فيها كما ان منع الاشرار والكسالى عن التزوج يفضي الى اصلاحها بتقليل الاشرار والبطّال

ومن الوسائل التي أشار بها الخطيب لترغيب الاخيار في الزواج اعطاء الاموال صداقاً لاهل الفاقة منهم وإسكانهم في بيوت جامعة شروط الصحة واكرام الذين لا يحتاجون الى المال منهم بالرتب ونحوها مما تظهر به البلاد اكرامها لابنائها وبث التعاليم الدينية في نفوسهم لكي تزيد عفتهم ويقوى تمسكهم بالفضائل . وقد يرى الناس في كثير من البلدان المتمدنة على تأخير الزواج من باب التصادي لكثرة النفقات التي ينفقونها فيه وعلى اولادهم ولكن يمكن تغيير ذلك وتقليل النفقات كثيراً فلا يصعب الزواج الباكر من المباعد بل يصير من المعونات

وقد جرت البنات الاوربيات والاميركيات المشتغلات على تأخير الزيجة الى السنة الثامنة والعشرين او التاسعة والعشرين من عمرهن لكي يتفرغن للدرس في المدارس العالية ولمحاظرة الرجال في العلوم والفنون . وعدل بعضهن عن التزوج مطلقاً واخترن العزوبة عليه لكي يخلصن من هموم البيت والاولاد . سئلت ناظرة مدرسة عالية عما يستفيده بنات مدرستها من العلوم بعد خروجهن منها فقالت ان ثلثهن يستفيد من علومه فائدة كبيرة وثلثهن يستفيد فائدة صغيرة واما الثلث الثالث فلا يستفيد شيئاً . فقيل لها وماذا يفعل اللواتي لا يستفدن فقالت انهن يتزوجن . وعلى هذا المنوال قلَّ عدد الراغبات في الزواج بين الناشئات في العلوم

ومن رأي الخطيب انهُ اذا تزوج البنات باكراً في السنة الحادية والعشرين او الثانية والعشرين كان نسلهن اكثر مما لو تزوجن في الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين لان المتم يحدث في سن معلوم فالتي تبكر في زواجها تلد اكثر من التي تؤخره فاذا روعيت هذه القاعدة وأصلحت المساكن حتى قلّت الامراض شبَّ الاولاد اقوياء الابدان والعقول وتناسل منهم اولاد اقوياء ايضاً تتقوى بهم الامة ويعظم شأنها . وتدرَّج الخطيب من هذه القضايا النظرية الى قضية عملية فقال ان الشعب الانكليزي ينفق كل سنة على اعمال البر اكثر من اربعة عشر مليون جنيه تذهب كلها صدقات للمساكين أفليس عندنا سبل أخرى لمساعدة

ابناء الامة غير هذا السبيل . اني لا اشير الى الانفاق على تعليم الشبان مع اني ارى نفسي مدفوعاً الى ذلك لما فيه من النفع الكبير ولكني اشير الى ما يفعله بعض الاغنياء المحسنين من مد يد المساعدة الى الشبان وهم في اول عمرهم ليسهل عليهم الارتقاء . ان من يقرأ ترجمات المشاهير يعجب من كثرة الرجال الذين ارتقوا بقليل من المساعدة وهم في اول اعمالهم . ولا اعني بهذه المساعدة ان يعتمد الشاب الفقير على الرجل الغني وتكون العلاقة بينهما علاقة المحسن الى المحسَن اليه بل ان يمدّ الغنيّ يد المساعدة الى شاب يمائله عقلاً وهمّة ولكن لم يمضِ عليه زمن كافٍ لجمع الثروة مثله فيكون بينهما نوع من المشاركة يفتخر به كلٌّ منهما الغنيّ يقول اني اعنتُ شاباً يستحق المعونة والشاب يقول اني استعنت برجل كريم لكي ارتقي في الاعمال واصير قادراً على اعانة غيري . اي تكون بينهما نسبة شريفة نسبة الشريك الى شريكه لا نسبة مهينة نسبة المحسن الى المحسَن اليه

ولا تقتصر المساعدة على الفتيان بل تتناول الفتيات ايضاً كأن يتكرّم المحسنون بالمال على البنات القليلات الثروة اللواتي ينتظر منهنّ النسل المرتقي حتى يسهل عليهنّ التزوّج وتربية الاولاد و يساعدن في تربية اولادهنّ ايضاً

وابواب المساعدة واسعة لدى كبار الملاّك وما ينفقونهُ في سبيلها رأس مال يعود عليهم بالربح الوافر فانهم اذا اختاروا اقوياء الابدان اصحاء العقول ودفعوا اليهم الاجور الكبيرة وبنوا لهم البيوت الصحية وساعدوهم في معيشتهم زادوا صحةً وهمةً فاحسنوا خدمة املاكهم والاعتناء بها . وكيف يُغفلون ذلك وهم لا يغفلونهُ في تربية مواشيهم بل يتباعون الجيد القوي منها باغلى الاثمان ويحسنون له المأوى والعلف والخدمة فيعود ذلك عليهم بالفائدة الكبيرة

ومتى اختار الملاّك اصحاء الابدان والعقول وجادوا عليهم بالاجور واسكنوهم البيوت الصحية ونظروا اليهم نظر الشريك الى شريكه لا نظر المحسن الى المحسَن اليه نشأ عندهم رجال يعتمدون على انفسهم ويُعتمد عليهم وقد ينبغ منهم اناس يرتقي بهم شأن الامة كلها

وختم الخطيب كلامهُ بقوله ان اصلاح نسل الانسان من الممكنات وان من يسعى في هذا السبيل فسعيهُ حميد مشكور . وهذا العمل كبير شاق ولكن غايتهُ تستحق ان يتعب لها الناس ويبذلوا الوسع في الوصول اليها . وما نيلها بالامر الممتنع لانها خاضعة لناموس الوراثة وهو على عظم شأنهِ خاضع لعقل الانسان اذا عرف ان يستخدمهُ وينتفع بهِ . وما من امةٍ احوج من الامة الانكليزية الى اصلاح النسل لاننا انتشرنا في اقطار المسكونة وعلينا يتوقف مستقبل الملايين الكثيرة من نوع الانسان . انتهى

وكثر اشتغال غلتن بهذا الموضوع اي اصلاح النسل فلخصنا في جزء اغسطس سنة ١٩٠٤ خطبة من خطبه فيه ثم انشأ مع جماعة من العلماء مجلة لنشر مبادئه وصفناها بالاسهاب في جزء يوليو سنة ١٩٠٩

وهو صاحب القاعدة التي وجدها بالاستقراء وهي ان الواحد يرث نصف قواه الجسدية والعقلية من والديه والربع من اجداده والثمن من آباء اجداده ونصف الثمن من اجداد اجداده والباقي وهو نصف الثمن من كل اسلافه فوقهم

وقد استقصى تاريخ مئة من المشاهير بحث عن اسلافهم واولادهم فوجد الشهرة تقل في آبائهم واولادهم على نسبة واحدة تقريباً اي انه اشتهر ٣١ من آبائهم و ١٧ من اجدادهم و ٣ من آباء اجدادهم واشتهر ٤٨ من اولادهم و ١٤ من احفادهم و ٣ من اولاد احفادهم

ومن المواضيع التي اشتغل بها اشتغالاً كبيراً والف فيها كتباً جليلة آثار الانامل ودلالتها على اصحابها واستخدام ذلك في تحقيق الشخصية . وقد اشرنا الى هذا الموضوع في كثير من مجلدات المقتطف الماضية من سنة ١٨٩١ فما بعد لاسيما في جزء سبتمبر سنة ١٩٠٠ حيث رسمنا آثار انامل غلتن نفسه ووصفنا كيفية استخدام هذه الآثار لتحقيق الشخصية في القطر المصري

جاءنا الفقيد ذات يوم ووجهه يتدفق سروراً فقلنا له ما الخبر فقال كنت الآن في محافظة مصر ورأيت كيفية استخدام آثار الانامل في تحقيق شخصية المجرمين . ولم يزد فعرفنا انها لذة العالم بعلمه والباحث ببحثه والمستنبط بفائدة استنباطه . وكثيراً ما حدثنا عن رحلاته في افريقية وعن مطارحاته مع العلماء فكنا نرى منه علماً غزيراً على وداعة وبساطة وبُعد عن الدعوى . وهذا شأن كل رجال العلم والفضل الذين لقيناهم

وقد نشرت مجلة نايتر ترجمة سهبة له قال فيها انه بقية الرجال العظام قادة الحركة العلمية التي قامت في القرن التاسع عشر مثل دارون وكلفن وهكسلي ومكسول بل ارباب الالهام والابتكار فانه كان من القلائل الذين مكّنتهم سعة معارفهم من البحث في كثير من المواضيع العلمية حاسباً ان العلوم مرتبطة بعضها ببعض تنقض الحاجز الذي يحصر اهل الاختصاص في موضوع واحد ويبحث في مواضيع شتى فاغناها كلها بثمار بحثه مدة ستين سنة . وطريقته التي امتاز بها ادخال البحث الكمي في كثير من فروع العلوم التي كان يُظَن ان لا دخل للقواعد الحسابية فيها كالاحداث الجوية والاخلاق البشرية وما اشبه . ولم يكن باول من قال ذلك فقد سبقه اليه الفيلسوف روجر باكن حيث قال من لا يعرف العلوم الحسابية لا يمكنه ان يعرف علماً من العلوم بل لا يمكنه ان يعرف جهله والعلاج الذي يشفيه . وقال لورد كلفن

انك اذا استطعت ان تقيس ما تصفهُ وتعبّر عنهُ بالارقام عرفت شيئاً من امرهِ ولكن اذا لم تستطع قياسهُ ولا التعبير عنهُ بالارقام فمعرفتك بهِ سخيفة لا تغني شيئاً

ثم بيّن الكاتب كيف بحث غلتن في كثير من المواضيع بحثاً رياضياً فاكتشف قواعدها ونواميسها اي الاساليب التي تجري عليها فصارت من العلوم المقيسة المعقولة بعد ان كانت ظنوناً لا ضابط لها كما رأيت في انتقال الصفات الموروثة ومقدار ما يورث منها

وبعد ان افاض في هذا الموضوع تناول اخلاق غلتن وبيّن ما كان طبعهُ من الوداعة والكراهة للجدل قال ولم اسمع منهُ كلمة تشف عن غيظهِ الاَّ مرةً واحدة وذلك ان احد مشاهير الاطباء ناقضهُ بقولهِ ان الصفات العقلية والادبية لا تورث ولا يقول بوراثتها الاَّ من يجهل نواميس الوراثة . فاجابهُ غلتن قائلاً « ان ما قالهُ حضرة الطبيب كان يحسن قولهُ منذ اربعين سنة قبلما دُرست نواميس الوراثة درساً مدققاً بالقياس والحساب اما الآن فصار من المحجور »

ثم قال الكاتب ان مسرات غلتن العظمى كانت ثلاثاً الاولى ان يكتشف مسألة من المسائل العويصة والثانية ان يحلها حلاً بسيطاً والثالثة ان يكاشف بحلها احد اصدقائهِ

وكان يلجأ الى ابسط الوسائل لحل اعوص المسائل وكثيراً ما كان يستخدم طرقاً غريبة لنيل بغيتهِ فاذا قصد اجتناءً وعلم ان الازدحام يكون فيهِ شديداً فلا يستطيع ان يرى ما امامهُ ولو كان واقفاً اخذ معهُ قطعة من الخشب اقامها تحت قدميهِ ووقف عليها حتى يرتفع ويشرف على ما امامهُ من فوق رؤوس الرجال الواقفين حولهُ . وصنع نظارة ذات مرآتين مائلتين فيرى بها ما امامهُ ولو لم يستطع ان يصل بنظرهِ اليهِ . واذا رأى صورة اراد ادخالها في كتاب من كتبهِ ولكنها كبيرة لا تسعها صفحة الكتاب قصَّر خطوطها طولاً وعرضاً تقصيراً متناسباً في لحظة من الزمان حتى قيل عنهُ انهُ اذا اراد احد ان يضع قنباً على ظهر جمل او يقيس قوقعة الحلزون او ينصب الشيوديليت في شوارع لندن المزدحمة بالمارة فعليهِ بغلتن فانهُ يعلمهُ كيف يفعل ذلك . ولو انقطع لعلم الهندسة لكان من كبار المهندسين كما انهُ لو انقطع لعلم الرياضيات لكان من كبار الرياضيين انتهى

وكان سكرتيراً للجمعية الجغرافية الملكية ببلاد الانكليز ورأس القسم الجغرافي في مجمع تقدم العلوم البريطاني مرتين والقسم الانثروبولوجي مرتين . وكان رئيساً للمجمع الانثروبولوجي من سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٨٨٨ وانتظم في عضوية الجمعية الملكية منذ سنة ١٨٦٠ ونال منها الوشان الملكي ونشان دارون وأُعطي لقب سر سنة ١٩٠٩ اي ان الحكومة الانكليزية لم تعترف بفضلهِ الاَّ بعد ان طبّقت شهرتهُ الخافقين